

**قافلة الحج المغربي: تحولاتها وأبعادها خلال القرون الأخيرة
في العصر الوسيط
بقلم: د. لطفي بن ميلاد، تونس**

مقدمة:

يعتبر الحج - بغض النظر عن صبغته العقائدية الفردية - من عناصر التواصل البشري والثقافي والاقتصادي بين بلاد المغرب والمشرق، إذ تحمل قوافله رجالا وأفكارا وبضائعا وربما دعاة وقادة سياسيين. وبعد قدوم الهلاليين إلى بلاد المغرب (القرن 5 هـ / 11 م) ثم حلول الصليبيين ببلاد المشرق (القرن 6 هـ / 12 م) ظهرت عديد التغييرات على مسار قافلة الحج المغربي. كما ظهرت ضمنه آثار الجدل السياسي وأحيانا العلاقات الدبلوماسية بين الدول وهو ما سنتناوله في هذا المبحث.

أ- تاريخ مسار الحجّ من بلاد المغرب إلى الحجاز :

لقد كانت الرحلة إلى الحجاز عند أهل المغرب عادة مألوفة مرتبطة بأداء فريضة الحجّ والتعرف على البقاع المقدسة، إلا أن هذه العادة كادت تنقطع عند استقرار الفاطميين بالقاهرة سنة 369 هـ / 973 م لأنهم ألزموا أهل المغرب - وهم من السنة - مكوسا مختلفة واخترعوا لهم أنواعا من التعذيب، ممّا أثار جدلا عنيفا بين فقهاء المغرب حول إمكانية تأجيل الحجّ أو إسقاطه لانعدام توفّر شرط

الاستطاعة لكنّ مراكب الحاج المغربي لم تنقطع رغم القيود المسلطة على الحجّ المغاربة.

وبعد سقوط الدولة الفاطمية سنة 567هـ/1171م، فتحت طرق الحجّ في وجه المغاربة من جديد وقلت أخطار الطريق، ورفعت الضرائب التي كانت مرتفعة التي سلطها الفاطميون على الحجّ المغاربة خلال عبورهم أرض مصر أو أثناء دخولهم أرض الحجاز، فتواصلت هجرة المغاربة إلى الحجاز ومصر والشام بصورة مكثفة لأداء الفريضة أو طلب العلم والتجارة مؤثرين في المشاركة متأثرين بهم، فنشطت الرحلات العلمية إلى الحجاز وغيرها من المراكز الثقافية كالقاهرة والإسكندرية والقدس ودمشق.⁽¹⁾

1- طريق الحجّ المغاربة من بلاد المغرب إلى مصر:

لا تختلف طرق الحجّ المغاربة عن طرق القوافل التجارية، وربّما كانت هي نفسها تضمّ التجار والعلماء. وتمر عبر محطات متعددة : سجلماسة، الجزائر، تونس وقابس لتلنقي في طرابلس الغرب ثم تتجه إلى مصر. وتتعدد طرق الحجّ لتكون ثلاثة :

- طريق بريّة صحراوية جنوبية.

- طريق بريّة ساحلية شمالية.

- طريق بحرية.

⁽¹⁾ بن ساسي (يوسف). المغاربة بالحجاز من القرن 7هـ/13م إلى القرن 9هـ/15م. أطروحة نيل شهادة الدكتوراه في الحضارة العربية. كلية الآداب بمنوبة. 1996 (مرقونة) ص3.

• الطريق البرية الصحراوية :

قد كانت الطريق البرية الصحراوية الجنوبية تربط المدن الصحراوية بجنوب المغرب الأقصى والأوسط "ليبيا"، كما تربط بينها وبين بلاد جنوب الصحراء خاصة دول جنوب صحراء مالي، غانا وبلاد السودان الغربي. وقد لعبت قوافل الحجيج دورا هاما في تنشيط التجارة الصحراوية والحياة من سجلماسة إلى توات، إلى ورقلة، ثم توزر ونفزاوة وقابس إلى بنقردان فطرابلس الغرب.

وعادة ما تتضمن إلى القافلة المغربية القوافل البرية الأخرى من المغرب الأوسط وإفريقية وطرابلس. ليتجمع الحجيج المغاربة في قابس أو في طرابلس الغرب لأنهما مركزا تموين ومحطتا استراحة بالنسبة إلى كافة الحجيج المغاربة باستثناء حجيج الطريق البري.

• الطريق البرية الساحلية :

وتربط مدن بلاد المغرب الشمالية، فينطلق ركب الحاج من فاس إلى تلمسان ثم الجزائر فبجاية وقسنطينة فباجة فتونس ثم إلى سوسة فصفاقس فقبابس ثم طرابلس الغرب، وقد سلك هذا الطريق الرحالتان المغربيان العبدري⁽¹⁾ سنة 688هـ/1290م وابن بطوطة سنة 725هـ/1325م،⁽²⁾ فوصف هذان الرحالتان المدن التي مرّا بها وصفا دقيقا وعدداً مظاهر الحضارة فيها.

(1) العبدري. الرحلة. تحقيق أحمد بن جدو. دون مكان ولا تاريخ الطبع. ص9.

(2) ابن بطوطة. الرحلة. تحقيق وتقديم علي المنتصر الكتاني. بيروت. مؤسسة الرسالة.

• الطريق البحرية :

وهي التي كان الأندلسيون وبعض المغاربة يفضلونها على الطريق البرية ذلك لأن مدة الرحلة البحرية أقصر من الرحلة البرية وأقل خطراً، إذا ما استثنينا خطر القراصنة والعواصف، إلى جانب أن الإسكندرية تعتبر مركز جذب للأندلسيين والمغاربة من حيث مكانتها التجارية والثقافية، وقد سلك هذا الطريق ابن جبير سنة 578هـ/1183م، ابن رشيد سنة 683هـ/1284م، والقلاصدي سنة 840هـ/1436م وغيرهم من الأندلسيين، بينما نرى ابن جبير في القرن 6هـ/12م يسلك الخطّ البحري الشمالي الذي يربط الأندلس بصقلية لينزل في الإسكندرية (نظراً للغزو النورماني والصراع المسيحي - الموحدي على سواحل المغرب الإسلامي)⁽¹⁾، نرى القلاصدي في القرن 9هـ/15م يختار الخطّ الجنوبي الذي يربط بين موانئ بلاد المغرب إلى أن يصل الإسكندرية (حيث تصل سفن البندقية حجاج المغرب بين موانئ بلاد المغرب وموانئ المشرق)⁽²⁾. وتنتمى ظروف التحول في الطريق البحرية انطلاقاً من المرية ثم تونس-المهدية-الإسكندرية، فالتحول الرئيسي هو الميل أكثر فأكثر إلى تجنب الطريق البرية لتدهور الأوضاع الأمنية لسيطرة الأعراب والهلاليين، والميل إلى الطريق البحرية لكن حتى في هذه الطريق فقد أصبح الميل إلى تجنب سواحل إفريقية وسواحل برقة وطرابلس والمرور أكثر بصقلية وجزر المتوسط نحو الإسكندرية، ويبقى نفس العامل مفسراً لهذا التحول مع إضافة

(1) ابن جبير. الرحلة. دار مكتبة الهلال. بيروت 1981. ص 9.

(2) القلاصدي. الرحلة. الشركة التونسية للتوزيع. تونس 1978.

شيء آخر هو أنّ السفن المستعملة هي سفن المدن الإيطالية،⁽¹⁾ كما لا ننسى عاملاً جديداً يتمثل في تكرار الفتاوي بالغرب الإسلامي والتي تحت أهل المغرب على الجهاد وتفضيله على الحجّ نظراً للضغوطات المسيحية.

• من مصر إلى مكة :

كان حجّاج الأندلس والمغرب ومصر يسلكون طريقاً طويلاً. يبدأ بعد وصولهم إلى الإسكندرية بحراً أو براً من الإسكندرية⁽²⁾ إلى القسطنطينية أو عبر القاهرة،⁽³⁾ ثم إلى صعيد مصر بمحاذاة النيل، حيث يستريحون بمدينة قوص (التي أصبحت مركزاً تجارياً هاماً في العصر الأيوبي لوفود الحجّاج إليها من الأندلس والمغرب، والتجار من اليمن والهند). فكان الحجّاج يغادرون قوص، قاطعين صحراء عيذاب،⁽⁴⁾ حيث الشاطئ الحجازي، ليرسوا في ميناء جدة، على مراكب صغيرة الحجم تُعرف بالجلّاب. كان يشحنها أصحابها بالحجّاج بعضهم فوق بعض لتحقيق أكبر ربح. ولهذا نصّح ابن جبّير حجّاج الأندلس والمغرب والإسكندرية ومصر، بمصاحبة لواء الحجّ

(1) موسى (عزالدين). "طريق عبر الصحراء" الليبية من المغرب الأقصى إلى مصر في القرن 6هـ/12م. مجلة البحوث التاريخية. س5 عدد1 طرابلس-1983. ص107.

(2) الدباغ. معالم الإيمان. ج3. تعليق وتكملة ابن ناجي. تحقيق محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس 1975. ص224.

(3) نفسه، ج4. تحقيق الأخوين المجدوب. د.ت. ص82.

(4) المقرئزي. المواعظ والاعتبار. في ذكر الخطط والأثار. دار صادر بيروت. د.ت. ج1. ص373.

العراقي عند العودة، والذهاب من العراق إلى ميناء عكا، ثم أخذ سفينة بحرية، إلى مصر أو المغرب أو الأندلس، لتتلافى العودة عن طريق ميناء عيذاب.

2- الحجيج المغاربة في القاهرة :

تعتبر القاهرة أهم نقطة عبور للمغاربة، وهم يقصدون البقاع المقدسة، فهي مكان تجمع أركبهم البحرية والبرية، وهي محطة تموين واستراحة، وهي بالنسبة إليهم مركز تجاري ثقافي.

كان ركب الحاج المغربي يصل في العادة إلى القاهرة، خلال النصف الثاني من شهر رمضان، بعد أكثر من ثلاثة شهور من خروجه من فاس، وبعد المرحلة الأخيرة من الرحلة، والتي تكون في العادة أصعب المراحل حين يشق الركب طريقه في المناطق الصحراوية التي تتدر بها مصادر المياه.

ويبقى الحجاج في القاهرة شهراً أو يزيد، ثم ينضمون إلى موكب الحاج المصري الذي يغادر العاصمة المصرية عادة في الحادي والعشرين من شهر شوال. إلا أن بعضهم يفضل - لسبب أو لآخر - الارتحال إلى الأراضي المقدسة بحرّاً من السويس أو عن طريق آخر، لينضم إلى الركب الشامي أو حتى الركب العراقي، مثلما فعل ابن جبير أثناء عودته، وابن بطوطة في الذهاب.

وكانت مشاكل عديدة تواجه الحجاج المغاربة، وهم في مصر، تقلّ وتشتدّ حسب الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية للبلد المضيف، مثل مشكلة الإقامة والغذاء والتموين، قبل مواصلة الرحلة إلى البقاع المقدسة.

وتوفرت ظروف محترمة في العهد الأيوبي، حيث قام صلاح الدين الأيوبي بتسهيل إقامة الحجاج المغاربة في الاسكندرية والقاهرة وإزالة رسم المكوس المضروب على الحجاج.⁽¹⁾ كما وفر هذا السلطان ظروف تأمين إقامة هؤلاء الحجاج وقد كان ابن جبير شاهدا على هذه المعاملة خاصة تجاه الفقراء والمساكين منهم "أنّ السلطان عيّن لأبناء السبيل من المغاربة خبزتين لكل إنسان في كل يوم بالغاً ما بلغوا ونصب لتفريق ذلك كل يوم إنساناً أميناً من قبله".⁽²⁾ ومثل حي ابن طولون أحد أهم مراكز إقامة المغاربة خاصة في عهد صلاح الدين ويصفه ابن جبير بكونه "وبين مصر والقاهرة المسجد الكبير المنسوب إلى أبي العباس أحمد بن طولون، وهو من الجوامع العتيقة الأنيقة الضفة الواسعة البنيان، جعله السلطان مأوى للغرباء من المغاربة يسكنونه ويحلقون فيه، وأجرى عليهم الأرزاق في كلّ شهر".⁽³⁾ وقد استمرت هذه التسهيلات للحجاج المغاربة طيلة العهد المملوكي. لكنها كانت تزداد أو تقل حسب الظروف السياسية للنظام السياسي القائم وتأثير ذلك على حركة الحجّ، ممّا أدّى إلى توفر جالية مغربية بأكملها في الإسكندرية والقاهرة، كما أصبحت لها مكانتها ومشاركتها في الميدان الاقتصادي والاجتماعي والثقافي. وتوفرت هذه الجالية على مجموعة من الحجاج تشكّل نخبة من العلماء والقضاة والفقهاء حيث أقاموا قرب الجامع الأزهر والمدارس المجاورة له.

(1) ابن جبير. الرحلة. ص28.

(2) نفسه. ص28.

(3) نفسه. ص25.

• مساهمة الحجاج المغاربة في موكب الحج المصري :

يساهم هؤلاء بانتظام في موكب الحج المصري الذي يتم على شكل احتفال بإحضار "كسوة الكعبة المشرفة" وكانت تجري عادة في منتصف شوال. وكانت هذه الكسوة تحضر من دار الصناعة بالقاهرة. ويحضر هذا الاحتفال عادة، كافة رجال الدولة في نظام خاص ويجري أمام قلعة صلاح الدين، إلى حيث يتقدم موكب الإبل الذي يحملها والمسمى بـ "المحمل الشريف" ثم يمرّ هذا الموكب وسط السوق إلى المشهد "الحسيني" وسط مدينة القاهرة فتنشر في صحن المسجد وتخاط هناك.⁽¹⁾ ويعتبر هذا الاحتفال بالكسوة بمثابة إعلان عن قرب الخروج في موكب الحج، أو ما كان يسمى بالخروج الكبير الذي يتم بعد الاحتفال الأول بأسبوع. ويتركب الموكب المصري من قائد الركب أو أمير الحج. ومهمته كانت حماية قافلة الحج خلال الرحلة، سواء باستخدام القوة العسكرية أو بتوزيع الهدايا على شيوخ القبائل العربية النازلة على طول الطريق التي تسلكه القافلة. أضف إلى ذلك ترتيب عمليات شراء المؤن المرسلّة مع القافلة والإشراف على توزيعها أثناء الرحلة. كما يتكوّن الموكب من العناصر العسكرية المكلفة بحماية القافلة، والتي كان يتراوح عددها بين خمسمائة جندي في السنوات العادية، وألفي

⁽¹⁾ يذكر الصيّري تكرر مشاركة الحجاج المغاربة في "محمل" الحج المصري إذ يحدثنا في ج 3 ص 288 "في شوال 837هـ/1435م. خرج محمل الحاج صحبة الأمير قراسنقر من بركة الحاج، وصحبته الكسوة للكعبة الشريفة وصحبته من المغاربة والتكرور والاسكندريين حجاج لا يحصى عددهم". وفي ج 3 ص 290 يحدثنا عنه "أنه في شهر ذي القعدة 837هـ/1435م وفيه قصد الأمير جقمق أمير سلاح الحجّ إلى بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه عليه أفضل الصلوة والسلام".

جندي في السنوات التي تزداد فيها الأعمال العدائية من العربان المقيمين على جانب الطريق. كما يتألف الموكب من عناصر تقوم على خدمة الحجاج من المتسوقة والباعة والجمالين من الفلاحين، ولهم قدرة عجيبة على الخدمة، وتحمل أتعاب السفر. فهم بالليل يسكرون وبالنهار يعملون في البيع والشراء والسقي والطبخ وعلف الإبل وإصلاح أقدابها ومداواة جراحاتها. فلا يكادون ينامون سوى القليل.

ب- صعوبات الحجاج المغاربة :

وهي عادة مخاطر متنوعة تختلف إلى مخاطر طبيعية، ترجع أساسا إلى طول الطريق وبعد المسافة بين بلاد المغرب والحجاز، وإلى قلة المياه في بعض المناطق الصحراوية والرياح والأمطار. وشدة الحرارة والمخاطر البحرية أثناء العواصف. وكذلك مخاطر بشرية تتمثل أساسا في هجوم العربان، والضرائب والمكوس التي تسلط على كل حاج في بعض المحطات مثل الإسكندرية وعيذاب وجدة وغيرها، وكذلك الهدايا أو الأموال التي تقدم اضطارا إلى العربان لتأمين الطريق والنجاة من اللصوص⁽¹⁾ وأهمها تهديد الصليبيين.

(1) من ذلك يذكر الصيرفي أن "سنة 803هـ (1402م) كانت هذه السنة شديدة على الحجاج. فمات خلق كثير من المغاربة وغيرهم، بعضهم من العطش، وبعضهم من القتال مع العرب". نزهة النفوس والأبدان. ج2. تحقيق وتعليق د. حسن حشي الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة 1974. ص119.

1- التهديد الصليبي للقافلة البرية للحج المغربي - المصري:

عمد الأمراء الصليبيون في بعض الأوقات إلى مهاجمة قوافل الحج والتجارة المصرية، المارة عبر صحراء سيناء، في طريق الحجّ ونهبها إذ يتحدث ابن شداد عن ذلك بقوله "وقد ظلّ نهب الفرنج لقوافل الحجّ والتجارة، حتى بعد انتصار حطين واسترداد بيت المقدس سنة 583هـ (1185م)، فنسمع عن نهب الابتكار لقافلة مصرية سنة 588هـ" ⁽¹⁾ (1193م). وهو ما أدّى إلى تعطيل الطريق البري للحجاج، الوافدين من الأندلس والمغرب ومصر، واضطرارهم إلى سلوك طريق طويل يبدأ من الإسكندرية إلى الفسطاط إلى مدينة قوص بصعيد مصر. ثم يشق الحجاج صحراء عيذاب حتى يصلوا إلى ميناء عيذاب على البحر الأحمر. ومنها يركبون السفن الصغيرة المعروفة بـ "الجلاب" حتى ميناء جدّة، وهو ما جعل هذه الرحلة شاقة، إذ يذكر ابن جبير أنّ الركوب من جدّة إلى (عيذاب) "آفة للحجاج عظيمة" ⁽²⁾. وهو ينصح الحجاج بعدم اتباع هذا الطريق عند العودة بل يرجعون صحبة أمير الحجّ العراقي، ثم يذهبون إلى ميناء عكا على ساحل الشام، ومنه يأخذون المراكب إلى المغرب والأندلس أو مصر. وقد كان قطع الصليبيين لهذا الطريق قد نمّ لهم بعد الاستيلاء على حصن الكرك. وهو ما جعل هذا الأخير محلّ صراع بينهم وبين المسلمين.

⁽¹⁾ ابن شداد. سيرة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي: النوادر السلطانية والمحاسن

اليوسفية. تحقيق أحمد أبيش. دمشق. ط1. 2003. ص 366

⁽²⁾ ابن جبير. الرحلة. ص 42.

2- حجاج الغرب الإسلامي في مواجهة القرصنة البحرية :

ارتبطت القرصنة المسيحية في البحر المتوسط بهيمنة المدن التجارية الأوروبية، وهي قرصنة لم تكن في أغلب الأحيان منظمة من طرف سلطة مركزية بل من طرف مجموعات ذات مصالح وكذلك أفراد، وقد تعرّض حجاج الغرب الإسلامي منذ زمن ابن جبير إلى تهديدات القراصنة. فيتحدث ابن جبير عن امتطائه مركبا مسيحيا التجأ اضطرارا إلى مدينة مسينا إذ "أصبح من العادة انتهاب المراكب واستعباد من فيها".⁽¹⁾

وتواصلت القرصنة حتى أوائل القرن 10هـ/16م لا في الحوض الغربي للمتوسط، بل في شرقيه أيضا. فقد كان الرحالة الألماني فيلكس فابري شاهدا على حمل بعض المراكب البندقية لحجاج من إفريقية وبلاد المغرب، وذلك يومي السبت 25 أكتوبر 888هـ/1483م والجمعة 31 أكتوبر 1483م والتي عرفت عديد الصعوبات في مواجهة القرصنة البحرية.⁽²⁾

3- الحجاج المغاربة والضرائب بين مصر ومكة :

فرض الفاطميون على الحجاج المغاربة مكسا منذ القطيعة السياسية مع الزيريين الذين أعلنوا ولاءهم للعبّاسيين، كردّ فعل وقد بلغت هذه الضريبة "سبعة دناتير ونصف دينار من الدناتير المصرية... على كلّ رأس" وهو

⁽¹⁾ ابن جبير. الرحلة. ص 265.

⁽²⁾ Fabri (Félix), *Le voyage en Egypte*. IFAO, Damas 1975, T3 p 963.

مقدار عظيم حسب ابن جبير.⁽¹⁾ كمكس للعبور بمصر ممّا جعل فقهاء الأندلس يفتون بترك فريضة الحجّ وهو ما وصفه ابن جبير بقوله "وأكثر هذه الجهات الحجازية وسواها، فرق وشيع لا دين لهم قد تفرّقوا على مذاهب شتّى. وهم يعتقدون في الحاجّ، ما لا يعتقد في أهل الذمّة، قد صيروهم من أعظم غلاتهم التي يستغلونها : ينتهبونهم انتهابا... فالحاج معهم لا يزال في غرامة ومأذنة إلى أن ييسر الله رجوعه إلى وطنه. ولولا ما تلافى الله به المسلمين في هذه الجهات بصلاح الدين لكانوا من الظلم في أمر لا ينادي وليده ولا يلين شديده. فإنه رفع ضرائب المكوس عن الحاج وجعل عوض ذلك مالا وطعاما يأمر توصيلهما إلى مكثر أمير مكة فمتى أبطأت عنهم تلك الوظيفة المترتبة لهم، عاد هذا الأمير إلى ترويع الحاج، وإظهار تثقيفهم بسبب المكوس...

فإن ورد المال والطعام الذي يرسمه من قبل صلاح الدين وإلا فهو لا يترك ماله قبل الحاج، هذا لقطه كأن حرّم الله ميراثا بيده محلّل له اكترأوه من الحاج فسبحان مغير السنن ومبدلها... فمن يعتقد من فقهاء أهل الأندلس وإسقاط هذه الفريضة عنهم، فاعتقاده صحيح لهذا السبب. فراكب هذا السبيل راكب خطر... والله قد أوجد الرخصة فيه على غير هذا الحال".⁽²⁾

ولم يكتف الفاطميون بذلك بل نوّعوا المكوس فمنها أداء العبور، وهو مكس وظفوه على الحجيج المغاربة. فما من حاج دخل مصر إلا وألزم بدفع

⁽¹⁾ ابن جبير. الرحلة. ص28.

⁽²⁾ نفسه ص 48.

هذا الأداء فإذا وصل إلى عيذاب، ولم يفعل "يُتناول بأليم العذاب (...) وربما اخترع له من أنواع التعذيب التعليق من الاشبين أو غير ذلك من الأمور الشنيعة... وحتى وإن أفلت ووصل إلى جدّة بدون علامة الأداء فإنه يعذب أيضا. وقد كان هذا الأداء يُدفع باسم ميرة مكة والمدينة".⁽¹⁾ وكان أول عمل قام به صلاح الدين إعفاء الحجاج من هذا الأداء وعوّضه بما "يقوم مقامه من أطعمة وسواها... وتكفل بتوصيل جميع ذلك إلى الحجاز"⁽²⁾ وهو ما يقصد به التزام صلاح الدين لأمير مكة.

وهو ما قام به هذا الأخير، سنة 572هـ/1176م بإبطال الغفارة، التي كانت تؤخذ من الحاج بجدّة، عن طريق البحر الأحمر، وعوض صاحب مكة في كل سنة ثمانية آلاف أردب قمح تحمل إليه في البحر، ويحمل مثلها فتفرق في أهل المارستان بمكة، كما أوقف على الحجاج وعلى الحرمين الأوقاف، وذلك للصرف على مؤونتهم إبان أداء الفريضة، كما أقطع أمير مكة الإقطاعات بصعيد مصر واليمن، وقد شفع صلاح الدين ذلك برفع جميع المكوس وهي ضرائب غير شرعية كانت من التجار على الحجاج، فسهل سبيل الحج، بعد أن كاد ينقطع، ولم يعد في استطاعة الحاج أداء فريضة الحج. ويصف ابن جبير هذا القرار بقوله "وكفى الله المؤمنين على يدي السلطان العادل، حادثا عظيما، وخطبا أليما. فترتب الشكر له على كل من يعتقد من الناس. أن حج البيت الحرام، إن القواعد الخمس من الإسلام، حتى يعم جميع الآفاق، ويوجب الدّعاء له في كل صقع من الأصقاع وبقعة

⁽¹⁾ المرجع السابق، ص 28.

⁽²⁾ المرجع السابق، ص 29.

من البقاع، وهو ... قدرته لا يضيع أجر من أحسن عملا... إذ أزال هذا السلطان هذه البدع العينة كلها، وبسط العدل، ونشر الأمن...⁽¹⁾

وهو ما نفهم منه حقيقة موقف ابن جبير وانتماءه المذهبي والفكري حيث كان متحفظا على المذهبين الشيعي والموحدي، ويعتبر صلاح الدين حاميا للسنة في العالم الإسلامي ومعيد مجد العباسيين. فيرى أن الدعاء له على منابر الحرمين بعد الخليفة العباسي وأمير مكة. وتأمين جميع الحاج على هذا الدعاء، أقل واجب على المسلمين، في جميع الآفاق، تجاه هذا السلطان "العادل"، الذي أمن فريضة الحج قائلا "ذي المآثر الشهيرة، والمناقب الشريفة، فإذا انتهى إلى ذكره بالدعاء، ارتفعت أصوات الطائفين بالتأمين. بالسنة تمدّها القلوب الخالصة، والنيات الصادقة، وتخفق الألسنة بذلك خفقا، يذيب القلوب خشوعا، لما وهب الله لهذا السلطان العادل، من الثناء الجميل، وألقى عليه من محبة الناس، وعباد الله شهادته في أرضه"⁽²⁾. وقد سعى صلاح الدين إلى تأمين وصول الحاج ورعايتهم حيث كاتب أمير مكة يوصيه برعاية الحاج عند وصولهم إلى الحرم المكي. كما كاتب أمير برقة من قبله، يوصيه بحماية الحاج المغاربة والأندلسيين المارين بولايته.

ج- مشاركة رجال البلاط الحفصي في قافلة الحج:

حمل الحجّ في العهد الحفصي، أبعادا متعددة سياسية وثقافية، إذ غالبا ما شارك الأمراء والعلماء في الحجّ خلال الفترة الحفصية، حيث كان الحجيج يرتحلون عن طريق البحر زرافات ووحدانا. وذلك على متن السفن

⁽¹⁾ المرجع السابق، ص 29.

⁽²⁾ المرجع السابق، ص 66.

المسيحية، في أغلب الأحيان، أو عن طريق البر، ضمن قوافل، كانت تصل إلى مصر. وكان من المتعين على الموظفين ورجال البلاط الاستئذان من السلطان للتغيب. إذ نقل برنشفيك أن أحد الأمراء الحفصيين الذي سيرتقي إلى العرش فيما بعد قد أخفى غرض الحج، متعللاً بالقيام بحملة عسكرية وجبائية في الجنوب التونسي ولم يعرب عن غايته الحقيقية إلا عندما وصل إلى حامة قابس⁽¹⁾. وقد كان ذلك الرحيل يعتبر بالنسبة إليهم وسيلة لتجنب العزل الذي يهددهم. وينبغي الحصول على نفس الرخصة لتكوين "الركب" الرسمي الذي كان يتجه كل سنة من إفريقية إلى مصر ومنها إلى البقاع المقدسة، إذا سمحت الظروف بذلك. وبالاتصال مع الركب المماثل القادم من المغرب الأقصى والمغرب الأوسط إذ يذكر ابن القنفذ أنه في "سنة 800هـ/1398م خرج أبو فارس بنفسه يشيع الركب الكبير الواصل من المغرب مع إرسال الأمير برقوق، حتى تعدوا طرابلس"⁽²⁾.

وقد كانت تلك القافلة المتركة في أغلب الأحيان من كبار رجال الدولة، محروسة من طرف الجيش، كما كان من الممكن أن تضم أحد القضاة. وكان حمل "علم" الركب ضرورياً لمرور قافلة الحج. وقد تكررت مشاركة رجال البلاط الحفصي ونساء سلاطين بني حفص في قوافل الحج. وربما حملوا بعض الهدايا إلى سلاطين المماليك أو رسائل مرافقة، إذ يذكر

(1) برنشفيك. إفريقية في العهد الحفصي. ترجمة حمادي الساحلي. ط1. دار الغرب الإسلامي. بيروت 1988. ص425.

(2) ابن القنفذ. الفارسية. تحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد الحميد التركي. الدر التونسية للنشر. تونس 1968. ص425.

المقريزي أنه "في 18 رمضان 803هـ/1402م قدم حاج المغرب، وفيهم رسل صاحب تونس بهدية، منها ستة عشر فارسا. قُدمت للسلطان وقدمت معهم نحو ثلاثمائة فرس للبيع"⁽¹⁾ كما يذكر السخاوي في "تبره" المسبوك أنه "في يوم الإثنين 12 رمضان 849هـ/1453م وصل ركب المغاربة للحجّ ومقدمهم مياح بن أبي عزارة، وفي جملة الركب السليماني وزير صاحب تونس، وغيره من الفضلاء والعلماء والصّحاء والأعيان... ومعهم الحرّة زوجة مولاي أبي فارس، لتحجّ حجة الإسلام وبعثت إلى السلطان بهدية، وهي نحو 30 رأسا نفيس الخيل أكثرها حجورة مجلّة بجلال على عادتهم، والمقدّم منها بلجام وسلسلة كلاهما ذهب وسرج بذهب أيضا، وعشرون قفصا من القماش المغربي الحرير، وغيرها ومعها في خدمتها جماعة كثيرون من الفرسان والرجالة، ومعها جمال وبغال بكثرة، وأقامت بالجيزة إلى ليلة الإربعاء رابع عشرة ثم جاءت إلى الميدان، والظاهر أنها مسنة جدّا".⁽²⁾

ومن عادة سلاطين بني حفص، تبادل التهاني والهدايا مع المماليك أثناء مواسم الحجّ، من ذلك أنّ السلطان المملوكي الأشرف برسباي (825-841هـ/1422-1438م) بلغه نعي أبي فارس عبد العزيز بينما كان يستقبل سفارة موفدة من قبله، فأسرع إلى توجيه رسالة تعزية وتهنئة حفيده

⁽¹⁾ المقريزي (ت 845هـ/1442م). السلوك لمعرفة دول الملوك. ج3. تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور. القاهرة 1970. ص1059.

⁽²⁾ السخاوي (ت 902هـ/1500م). كتاب التبر المسبوك في ذيل السلوك. مكتبة الكليات الأزهرية. د.ت. ص123.

المنتصر في 11 ربيع 838هـ/15 أكتوبر 1434م.⁽¹⁾ كما تكرر إرسال الهدايا من قبل السلطان الحفصي إلى السلطان المملوكي مع موكب الحجّ خلال عهد السلطان أبي عمرو عثمان (839-892هـ/1435-1485م) خاصة في مواسم 849هـ/1446م⁽²⁾ و 859هـ/1454م و 872هـ/1468م،⁽³⁾ وكثيراً ما لعب الحجّ دوراً في توثيق العلاقات الودية بين الدولة الحفصية ومصر المملوكية، حيث مرّ ركب الحجيج الأفارقة بمصر في طريقه إلى مكة سنة 877هـ/1473م، وتواجد في هذا الركب قاضي الجماعة بتونس مرافقاً لإحدى زوجات الأمير الحفصي أبي عبد الله بن أبي فارس (ت 878هـ/1474م) واسمها رابحة ابنة المرابط يقول عنها السخاوي "كانت حجت مرارا في أيام الظاهر جقمق، زارت بيت المقدس وعظم شأنها".⁽⁴⁾ كما مرّت قافلة الحجيج بنفس المكان سنة 889هـ/1484م بسبب كثرة عدد الحجيج بصورة غير عادية،⁽⁵⁾ وربما كان ذلك لسبب الأنباء الواصلة عن التحولات السياسية في المشرق بسبب زحف الأتراك على

(1) Colin (A). "Contribution à l'étude des relations diplomatiques entre les Musulmans d'Occident et d'Egypte au XV siècle ». p198. Mémoire de l'IFAO du caire. T68, 1935-1940.

(2) السخاوي. **التبر المسبوك**. مصدر سبق ذكره. ص123.

(3) برنشفيك. تاريخ إفريقية في العهد الحفصي. ج1. ص292.

(4) السخاوي. **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**. منشورات دار ملكية الحياة. بيروت. ج12. ص198.

(5) برنشفيك. **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي**. مرجع سبق ذكره. ج1. مرجع سبق ذكره. ص305.

المنطقة. وبذلك مثل الحجّ فرصة لدى الحفصيين لربط علاقات ودّية مع دولة مصر المملوكية لكنه كان فضاء لتداعيات العلاقة معهم فإثر إعلان "الخلافة" من قبل المستنصر الحفصي وهو إعلان حظي باعتراف شريف مكّة أبو نمي الحسيني والذي نتج أساساً عن الفراغ الحاصل في مؤسسة الخلافة حيث فقد حجاج العراق السند الديني فسعى إلى استقطاب الحجاج المغاربة في وقت لم تنتهياً الظروف لنظام المماليك لحماية أماكن الحج، وهو ما كاد يفقد هذا الأخير الشرعية الدينية لكسب سيادته الدينية على بلاد الحجاز خاصة الأماكن المقدّسة وطرق الحجّ.⁽¹⁾

لكنّ بيبيرس استغلّ الخلاف بين أمراء الحجاز سنة 667هـ/1268م وهم أساساً نجم الدين أبو نمي وعمّه وشريكه في إمارة مكّة الشريف بهاء الدين إدريس، وقد انتهز هذه الفرصة لتسوية النزاع بينهما وتأكيد سلطانه عليهما جميعاً، فرتب السلطان لهما عشرين ألف درهم كل سنة، بشرط ألاّ يجمعوا من أحد في مكّة مكوساً وألاّ يمنع أحد من زيارة البيت وألاّ يتعرض لتاجر،⁽²⁾ وقام ببسط سيادته على الحجاز، إذ اشترط على أمير مكّة أن يخطب باسمه في الحرم والشعائر، وأن تضرب السكّة (النفوذ) باسمه، وبعد موافقة أمراء الحجاز كتب لهم تقليداً بالإمارة وسلمت لنوابهم أوقاف الحرم التي بمصر والشام،⁽³⁾ ولم يكتف بيبيرس بذلك، فقد قام بعدة إصلاحات

(1) عاشور (سعيد). الظاهر بيبيرس. سلسلة تاريخ المصريين عدد 207. القاهرة

2001. ص116.

(2) نفسه ص113.

(3) طقوش. تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام. ص108.

بالحرم النبوي، فأرسل الكسوة إلى الكعبة، كما أرسل الصدقات والزيت والشموع، والطيب والبخور مع كسوة للقبر النبوي، وختم ذلك بتأديته فريضة الحج سنة 668هـ/1269م وطرد أنصار الحفصيين وعوضهم بنائب عنه في الحجاز هو شمس الدين بن مروان فأبطل الخطبة لسلطان الحفصيين. وجعلها للخليفة العباسي ثم لسلطان مصر من بعده.⁽¹⁾

وواصل الحجّ اكتسابه بعدا سياسيا، باعتباره عنصرا فاعلا في العلاقات السياسية المملوكية-الحفصية. إذ طلب أبو فارس عبد العزيز (796-837هـ/1394-1433م) سلطان الحفصيين من السلطان المملوكي فرج بن برقوق [حكم في الفترة الأولى بين (800-806هـ/1398-1405م] السّهر على أمن الحجّ.⁽²⁾ بعد تعرّض القافلة المغربية للنهب من طرف قطاع الطرق في الحجاز نحو 800هـ/1398م. كما ذكر اسم أبي فارس من طرف الخطيب الرسمي لحجّ جبل عرفة من بين أكبر ملوك الإسلام، ممّا جعل حجّ إفريقية يشعرون بهذا الشرف الذي نال سلطانهم. كما حمل الحجّ أبعبادا ثقافية، فقد كان العلماء والقضاة والمتصوفون يشاركون في الحجّ ويستقرّون لمدة طالت أو قصرت في المشرق العربي. وكان بعضهم يقوم باتصالات (خاصة الطلبة والعلماء)، أثناء إقامتهم بالمشرق مع نظرائهم في سوريا أو مصر أو الحجاز. من ذلك نجد أنه في "10 شوال 792هـ-1390م، قدم القاهرة الشيخ الإمام فقيه المغرب أبو عبد الله محمد بن محمد بن عرفة المالكي، الأستاذ قاصدا الحج إلى بيت الله الحرام وزيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام فتلّقه الفضلاء والعلماء، وأكرم غاية

(1) المقرئزي. السلوك ج1. مصدر سبق ذكره. ص579.

(2) برنشفيك. تاريخ إفريقية في العهد الحفصي. مرجع سبق ذكره. ص247.

الإكرام".⁽¹⁾ ولم يكن العلماء وحدهم في المشرق أثناء تأدية مناسك الحج بل سافر الأولياء والصالحون في ركب الحجّ الحفصي "وممن قدم القاهرة للحج سنة 893هـ (1487م) سيدي أحمد الدهماني القيرواني المغربي، نزيل طرابلس وحفيد القطب أبي يوسف الدهماني، المعتقد بين الأكابر والمدفون في زاويته خارج القيروان بالقرب من أبي الحسن القاسي. وكان أحيانا يكون شيخا للركب المغربي لوجاهته وصلاحه، بحيث بلغنا أنه قال مرارا جهارا للسلطان عثمان : موتي وموتك في سنة واحدة، فكان عند ذلك، فإنه توفي بالقاهرة، ودفن بتربة الشاذلية رحمه الله ونفعنا به".⁽²⁾

خاتمة:

عرفت قافلة الحج المغربي خلال القرون الأخيرة من العصر الوسيط تحولات عديدة على مساراتها نتيجة الحدثين الهلالي (القرن 5هـ / 11 م) والصليبي (القرن 6هـ / 12 م) لكنها تأثرت أيضا بالأجواء السياسية التي كانت تدور بين دول المشرق من جهة (أيوبيون/ مماليك) ومنافسيهم وخصومها من بلاد المغرب (موحدون/ حفصيون). وهو ما يعلننا نستنتج غلبة البعد السياسي على البعد التجاري لينضاف إلى الدور الديني والعلمي المعروف لقافلة الحجّ.

(1) أنظر : الصيرفي. " نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الأبدان". ج.1. ص50. غراب (سعد). "ابن عرفة في المشرق العربي". ابن عرفة والمنزع العقلي. تونس 1993. ص51.

(2) السخاوي (ت902هـ-1500م). وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام. القاهرة. د.ت. ص1063.